

برتقالة ابن سعيدة

Contes pour les jours de pluie

de Madelaine Favergeant

1924

حكاية إفريقية مترجمة



الأستاذ عبد الحميد حادوش

من حكايات للأيام الممطرة 1924 - ص 1



En-Seïda stupéfait reconnut dans les deux voleurs ses deux frères Hessi et Guémâr (p. 95).

برتقالة ابن سعيدة

لمّا توفّي الشيخ " أنيف " في خيمته " بعين الشيلية " ، اقتسم أبناؤه الثلاثة ما تركه من إرث قليل . كان العجوز فقيرا ، وقد لا يحتاج المرء للبحث كثيرا من " مسكرة " إلى " الكف " ومن " أنجدجلي " إلى " زينة " ليجد عريبا أقلّ منه ثراء . لم يترك بعد موته إلا خيمته التي عاش فيها طول حياته ، وحماره الرّماديّ الصّغير ، مرافقه في سنواته الأخيرة .

استحوذ " حسي " الابن الأكبر على الخيمة ، وأخذ " جمار " الابن الثاني الحمار الرّمادي . ولما جاء دور ابن سعيدة أصغر أبناء الفقير " أنيف " ، أخذ أخواه يبحثان له عن نصيب . لم يجدا في مسكنه المتواضع ثيابا لأنّ الشيخ دفن بمعطفه الوحيد ، ولم يكن يملك أواني لأنّه كان لا يأكل إلا ثمارا يقطفها من

النخل وأشجار الكوك التي تملأ جنبات الطرق ، ولا يشرب إلا ماء الينابيع بكفيه ولم يخلف نقودا ولا أطعمة من أي نوع لأن " أنيف " تواعد مع الفقر . ورغم ذلك استمر الابنان يبحثان في الخيمة . اكتشفا برتقالة قدامها لأخيها الصغير قائلين :

- هذا نصيبك من إرث والدنا . حاول أختانا أن تقبلها ، فنحن لم نأخذ أكثر من حقنا ، ثم طردها من المنزل وأغلقا الباب خلفه .

فلما لاحظ ابن سعيدة القسمة المجحفة لأخويه ، ومعاملتهما القاسية ، ابتعد باكيا ، ومشى وسط الأعشاب طويلا حاملا معه من الإرث برتقالة هي آخر ذكرى أبيه . سأل نفسه إلى أين يذهب ؟ وكيف يلبي حاجاته ؟ قرر متابعة إحدى الشعب التي يعرفها جيدا ليصل إلى مدينة " مغوم " ، ويبحث فيها عن شغل . أسدل الليل ظلامه ، وكان المكان مقفرا ، و ابن سعيدة يمشي ببطء ، وفجأة ، انتبه إلى أنه قد ظل طريقه وأصبح لا يعلم أين يسير . حاول معرفة اتجاهه فلم يفلح . لم يجد بديلا إلا الجلوس عند جذع نخلة وانتظار شروق الشمس . لف جسمه ببرنسه ، واستسلم . وهيهات أن يزوره النوم والجوع يسيطر بعنف على ابن سعيدة المسكين . تذكر أنه يملك برتقالة ، فبحث عنها في ثياب ثوب حزامه الواسع .

- عندما أكل هذه البرتقالة لن يبقى لي شيء من ذكريات أبي .

هكذا فكر ابن سعيدة ، ولكن لما اشتد به الجوع قرّر أكلها ، ولما عزم على إزالة قشرتها ، سمع صوت ناي يعلو كأشودة سحرية في سكون الليل الساخن . نطقت البرتقالة فقالت :

- لا تتناولني يا ابن سعيدة ، اعلم أن لي القدرة على التحول إلى عدد لامتناهي من الأشياء مهما كانت كروية الشكل وذهبية اللون ، فإن عرفت استعمالها صرت غنيا .

ألم العجب والخوف بابن سعيدة ولم يعد يعرف كيف يتعامل مع هذه الفاكهة الأعجوبة . أمسكها بين يديه ، وطفق يلمسها في فضول قوي وسط الظلام ، ولم يجرأ على استعمالها بأي شكل من الأشكال .

- لو أستطيع أن أجد طريقي فقط - صرخ بهذه التهمة - سأنتصر دون شك على فقري ، لكن هيهات وأنا تائه وسط الأعشاب والليل ، ودون نجوم وقمر .

ولم يكد ينهي هذه الكلمات حتى طارت البرتقالة من بين أصابعه ، وعلت في السماء ، وبعد برهة إذا بقمر يضئ وسط السحب لينير طريق المسافرين المسكين ، فصاح حينئذ متعجبا :

- آه ! آه ! الله أكبر .

ألقي ابن سعيدة جبينه على الثرى ساجدا ، وتابع سيره تحت ضياء القمر في اتجاه " مغوم " والفرحة تغمره بما يملك من سلطة عجيبة ، وهو يتضور جوعا فكر في ما قد يلتم به من أسف وحسرة لو ضيع هذه البرتقالة الشريفة .

كذب على أخويه الذين طردها بقسوة دون طعام ، فكم تمنى لو كان رغيغ خبز شعير ، أو جرة ماء ، أو جبن ضأن لا غير . وبينما هو يحدث نفسه جهرا بهذه الكلمات إذا بالبرتقالة تعود من تلقاء نفسها ، وتستقر في يده . صرخ من شدة الفرح وأمسكها بحدة بين أصابعه ، ولكنه لم يكن يمسك ببرتقالة . وفي لحظة ، أصبح ابن سعيدة يلمس خبزا دائريا فضيا تنبعث منه رائحة عطرة كأنه أخرج من فرن الخباز لتوه . جلس على جانب الطريق ووضع الخبز أمامه ، وفي حينه ، امتلأت يده للمرة الثانية ، فلاحظ أنه يقبض على جرة كروية من جلد ناعم بلون زعفراني مملوءة بماء زلال . وما كاد ينتهي من وضع الجرة بجانب الرغيغ حتى وجد في يده جبن النعاج الطري الذي تمناه . جبن كروي تغطيه قشرة صفراء لامعة . أكل ابن سعيدة وشرب ، وشكر الله على كرمه ، وتابع سيره نحو " مغوم " .

وفي الصباح الباكر ، ألقى نفسه بمدخل المدينة قرب حدائق الزهور والياسمين . مرت بجانبه فتيات صغيرات متحجبات كنّ متجهات إلى النافورة وهن يضحكن تحت برّآتهن ، فانتبه إلى أن برنسه القديم ، وكل أسماله لا تمنحه مظهرا لائقا ، فتمنى برنسا جديدا ، وثوبا وحذاء قشيبين .
- هيهات ! لا أملك في جيبي سكة واحدة .

وفي الحين ، خرجت البرتقالة من ثنيات حزامه لتستقر في كفه . رأى العربي الصغير البرتقالة تصغر وتصغر إلى أن أصبحت قطعة ذهب . دخل أحد دكاكين " مغوم " ، فاشترى ثيابا فاخرة ، وأسلحة ، وجوادا بهيّا أسود ، ولم ينس أن يشكر الله ويستغفره ، ويصلي على رسوله محمد .

فخور بهينته وهو على ظهر حصانه ، جاب ابن سعيدة طرق " مغوم " في زهو ، وأسرع جمّ من الفضوليين والعجّاب من تحت أقواس وأعمدة الممرات والمساجد وأقدام الصوامع ، ومن كل مكان لمعاينة فارس غريب يرتدي عمامة شرقية في فخر ، ويتمنق بسيف مقوس مزخرف بخيوط ذهبية وفضية رقيقة . توقف أمام قصر رئيس المدينة السلطان عمر بن العريش ، الأكبر قوة ونفوذا من كل شيوخ البلد ، يملك قصرا من المرمر المرصّع بالذهب والفسيفساء ، له شرفات عالية مطلية على الحدائق المزهرة ، ويعبرها جدول به مياه تجّاجة تندفع بقوة ، وفي أعلى شرفة بالقصر تلعب يملاح - البنت المحبوبة للسلطان عمر - بالكرة مع قرباناتها . سمع ابن سعيدة جلب فرح الصبايا فوقف عند مدخل البلاط ، ورفع عينيه في اتجاه يملاح يتتبع نظرات عينها برهة . لم يستطع ابن سعيدة مشاهدة وجه بنت الشيخ لأن بياض خمارها يحجب فمها ، وخديها ، وجيدها ، ولا يسمح إلا ببروز عينها الناعستين الرائعتين .

وفجأة ، صالت الفتاة ، فالكرة التي رمت بها إلى صديقاتها سقطت من أعلى الشرفة إلى الجدول لتجرّفها قوة المياه الدافقة . هبط ابن سعيدة من أعلى حصاته ، عبر باب القصر وأسرع نحو الجدول يأمل إنقاذ كرة السلطنة

الصغيرة من المياه ، لكن اللعبة أبعدها الدوائر المزبدة لخفتها . وفي الأوان ، تذكر البرتقالة التي أخفاها بين ثانيا ثوب حزامه . وضعها على كفه ، وإذا بالبرتقالة تحلق بسرعة إلى علو الشرفة وتستقر بين الأصابع البيضاء ليملاح .
- أخواتي ، أخواتي تعالين لتتظرن - صاحت الأميرة الشابة في إعجاب .

- تعالين لمشاهدة جمال الكرة الذهبية !

فالبرتقالة كانت بالفعل قد أخذت شكل رفة كرة ذهبية وهي تنتظ برفق وابتهاج أطلت يملاح من العلو على حدائق القصر فرأت فارسا على صهوة جواد أسود وسألته

أيها الفارس الجميل ، من الذي بعث بهذه الكرة لابنة عمر بن عبد العريش ؟ أنا يا أميرة الأميرات ، أجابها ابن سعيدة في انحناء ، ويده على قلبه .

وفي الحال ، أعطت يملاح أمرها للعبد الأسود " دجيولا " لإحضار الفارس أمام السلطان عمر ، ورخصت لابن سعيدة ما لسن به قولها :

- اذهب للسلام على أبي السلطان ، واطلب منه يد ابنته يملاح ، اذهب والله يحرسك .

ابتهاج ابن سعيدة بالحظ الذي بعث إليه زوجة محبوبه ، ابنة أمير غني وقوي يلبي كل ما ترغبه يملاح . ولما وقف في حضرة عمر بن عبد العريش خاطبه :

- باسم الله الأكبر ، ورسوله محمد ، أطلب منك يد الأميرة يملاح ، ابنتك المتألقة بين صاحباتها كجشرة الورد المزهرة وسط أقحوان الحقول .

- من تكون أيها الفارس الغريب ؟

- اسمي ابن سعيدة ، ابن " أنيف " ، ولدت " بعين شيلية " ، ما وراء بلد الشركي . (ك : بثلاث نقط)

- شرفنا هذا المساء في الحفل الذي أنظمه بحدائق قصري ، وعلى شرف ابنتي المحبوبة التي تكمل في هذا اليوم سنتها الخامسة عشر ، وغدا سأقول لك هل تستطيع أن تحظى بيد يملاح .

شاء السلطان عمر أن يمنح لنفسه الوقت لأنه يتمنى تزويج وريثته الوحيدة من أمير مغربي غني ، وصاحب جاه وصيت واسع .

- فليكن - قال ابن سعيدة - سيدي عمر ، سأحظر هذا المساء للحفل في حدائقك

حيا السلطان وبرح المكان . ولما حلّ الليل عاد إلى القصر . وجد الحدائق تفوح بعطر الورد والياسمين وزهور الأقحوان ، وهي في احتفالية ، وخرير المياه المتدفقة تملأ نوافرات المرمر ، وضياء الفوانيس ينتظم طوال الأشجار والعشب كالأفاعي النارية الطويلة . وأما الموسيقيون والراقصون فكانوا ينعمون الشجيرات بأصوات نغم الطبول والأنشيد ، والخدم يصبون القهوة العربية المعطرة في الفنجانين الصغيرة المطرزة أقدامها بالنحاس . ومن أعلى

الشرفة كانت الأميرة يملح تراقب الاحتفال الذي أقيم على شرفها ، وابن سعيدة يلمح رفرقة حجابها الأبيض ، وبريق حليها اللؤلئي .
وحوالي منتصف الليل ، انطفأت القناديل المضيئة للحدائق لنفاذ زيتها الذي يوقدها لساعات عديدة ، ولما كان المساء قمريا ، فإن السماء بقيت سوداء كسماء العاصفة .

- مع الأسف - قال السلطان عمر - نحن الآن نغرق في الظلمة . علينا أن نوقف الغناء والرقص ، فيملح كانت تتمنى دوام الحفلة الليل كله .
- إن أمنية الأميرة بالإمكان أن تتحقق أيها السلطان عمر ، إذا أذنت لي .
نطق ابن سعيدة بهذا وهو يخرج من حزامه البرتقالة صاحبة التغيرات المتعددة ، وناشدها بصوت خافت :
- برتقالة ، أيتها البرتقالة السحرية ، اعملي على إنارة الحديقة للأميرة يملح .

وفورا ، انقسمت البرتقالة العجيبة إلى ألف جزء علق بالأشجار ، والشجيرات ، والنباتات ، والعناقيد المزهرة . وفي أقل من برهة ، أضاعت المصابيح الكروية اللامعة كل أرجاء القصر ، وانبعث منها لهب فضي حيث التسيم المحمل بالطور يارجحها برفق .

ومن أعلى الشرفة ، صفقت يملح معبرة عن فرحها . وبعدها استأنف الحفل ، وأجلس السلطان عمر الفارس على يمين عرشه البهي . وقدم الطعام السلطاني تحت خيمة من الحرير المزركش برسوم جميلة . ووزعت أصناف المأكولات اللذيذة ، والشراب الراقى للمدعوين ، وقدم السلطان كأسه لابن سعيدة معلنا بصفة رسمية :

- أيها الغريب النبيل ، نقبل أن نمذك يد الأميرة ابنتنا .
وفي نفس الهنيهة ، أحضر خدام السلطان إلى الخيمة متسولين ضبطا بمدخل الحدائق يسرقان ليمون وتمر معاليه .

وجم ابن سعيدة في مكانه مذعورا لما عرف أن السارقين أخواه "حسي" و "جمار" اللذين طردها بفظاظة من المنزل الأبوي .
- ليلقيان في السجن ، صاح عمر بحدة وغيض .

تردد ابن سعيدة برهة خائفا من أن يعرفه الأخوان ، وبقي منقسما بين الرغبة في الانتقام مما لحق به في الماضي من أذى ، والإشفاق على من كان العجوز يناديها ببني . انتصرت الرحمة ، فنادى ابن سعيدة :

- أيها السلطان عمر ، باسم ابنتك يملح التي تحتفل اليوم بعيد ميلادها السعيد ، أعف عن هذين المذنبين ، واتركني أرافقهما بنفسي إلى أبواب القصر ، وجزاك الله العظيم خيرا على نبلك .

أجابه عمر :

- ابن سعيدة ، صهري ، لن أرفض لك طلبا .

أبعد ابن سعيده أخويه خارج قصر السلطان ، وعزف بنفسه "لحسي" و "جمار" المرتدين والمذعورين .

- سامحنا ، نستحلفك بالله ، قال الأخوان في رجاء .
غفر ابن سعيده لهما لأنه كان طيبا ، وكان يعلم في قرارة نفسه أن يملأح
الأملود ستوافقه على صفحه . وأمد " حسي" و " جمار" قدرا كبيرا من المال
حتى لا يفكرا في السرقة ، وعاد إلى خيمة عمر حيث التحقت يملأح
بالمدعوين ، وبأمر من أبيها .

دعا السلطان الخطيبين ليشربا في كأس واحد ، ويتلفظا بالكلام المقدس
المعتاد ، بعدها قدم ابن سعيده للأميرة يملأح - وأمام الحاضرين - البرتقالة
السحرية التي صنعت غناه ، وقادت الأفراح إلى مصيره .

من المجموعة الحكائية : « حكايات للأيام الممطرة » لسنة 1924م Contes
pour les jours de pluie

للكاتبة : مادلين فافركييت Madeleine FAVERGEAT en 1924

تقديم متأخر

السماء تمطر . القطرات تسقط ، تلامس الأرض والأقدام . إنها ترقص
على العشب والأوراق وزجاج النوافذ .
السماء تمطر ، هل تسمعها ؟ أريد أن أنقل إليك حكاية من حلم وحقيقة
إن الحكايات تنسينا تعب الطريق ، تدفئنا ، وتزرع فينا الأمل .
قطرات المطر تمتعنا ، والحكي يستهويننا في كل الأيام الممطرة .
العصفور المرتعد في وكنه يعيش المطر والنشيد ، وأحلام الأطفال ترتاح
للحكايات .